فى الجـــو ...

للدكتور طه حسين

أما فى العصور القديمة حين كان الانسان رشيدا حذرا يطلق خياله الى أبعد مدى ممكن ، لأن اطلاق الخيال لا يضر ولا يخيف ولا يرسل عقله وجسمه الا فى أناة وبمقدار ، لأن إرسال العقل والجسم بغير حساب قد يؤدى الى ما لا يحب ، أما فى تلك العصور فقد كان الناس يطيرون فى الخيال . يطيرون مجازا لا حقيقة ، وقد تحدث اساطيرهم بأن منهم من حاول ان يطير حقا ، فلما ارتفع فى الجو دنا من الشمس فذابت اجنحته التى اتخذها من الشمع ولم يلبث هو ان هوى الى الارض فاندق عنقه ، ولقى من الموت جزاء على هذه الجراءة التى سمت به الى اوقى مما يجب ان يسمو اليه الناس . فقد خلق الناس ليمشوا على الارض لا ليطيروا فى الجو ، فمن عدا منهم طوره او تجاوز حده لقى هذا الجزاء الذى لقيه طائر الاساطير اليونانية حين اذابت اجنحته الشمس ، او مالقيه طائر الاخبار العربية حين كان جسمه اثقل من خياله فلم يكد يسلم نفسه الى الهواء حتى خانه الهواء واسلمه الى أمه الارض فدقت عنقه اولا . ثم حنت عليه بعد ذلك كما تحنو الام الرؤوم على ابنها العزيز

كان ذلك فى العصر القديم حين كان خيال الانسان اكبر من عقله . وأشد منه اجتراء على الطبيعة وما ينبغى فيها من المصاعب والعقاب .

سعيا وطلبا . ولكنهم يعودون بعد الاخفاق الى السعى والعدو ، لا تنيهم العقبات إلا ريثما يتأهبون لاجتيازها . ولا يرتدون لحظة الا ليأخذوا العدة للتقدم . وكأنما لا يعرفون طعم اليأس ، ولا يؤثر فيهم الاخفاق ، فهم أبدا كموج البحر لا يتراجع إلا ليدفع ، ولا يضعف إلا ليشتد .

وهاقد انقضت الساعتان كأنهما لحظتان . فتى وسعك الآن أن ترجع إلى أسفارك وأخبارك ، ونحوك وصرفك . وأحسبك الآن قد آمنت ان هذا الميدان البرى لا يخلو من الحكمة والموعظة الحسنة . اجل وانك لتحدثك نفسك الساعة بمثل الذى تحدثنى به نفسى ليت لعب الحياة كان جداً ، وبانيت جدها كان لعبا !

وكان اسلافنا من أدباء العرب وشعرائهم محبين للأناة ، يطيرون ولكن دون ان يفارقوا اماكنهم ، تطير نفوسهم وقلوبهم شوقا الى من يحبون ، وتطير نفوسهم وقلوبهم فرقا من يكرهون ، وقد تطير أجسامهم الى ساحة الحرب وميادين القتال حين يأتيهم الصريخ ويبلغهم فرع المستغيث . ولكن اجسامهم كانت تطير دون أن تفارق اقدامهم الارض . كانوا يسرعون فى العدو فيحسبون انهم يطيرون ، ولعل منهم من كان يطير فى الجو ، ولكن على ظهر ناقة او جمل . فكان يباعد بين قدميه وبين الارض ، ولكنه كان يتخذ بينه وبين الارض سببا على كل حال . ومنهم من كان يسعده الحظ وتواتيه الثروة فيطير على ظهر فرس او جواد ، ويحسب مع ذلك انه يطير حقاً ، وربما عبث به الوهم ولعب به الخيال فظن حينا انه يطير ، وظن حينا آخر أنه يسبح فى الماء ، أما الآن فلست أدرى أضعف الخيال ام لم يضعف ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه هو ان العقل والجسم اخذا يسابقان الخيال فيسبقانه فى كثير من الاحيان ، فلم يبق الطيران فى الجو حلما ولا وهما ولا نبأ من انباء الاساطير ، وانما أصبح اداة يسيرة من ادوات الانتقال . وكان منذ أعوام اداة مقصورة على أصحاب الجراءة من القنبين ، ثم تجاوزهم الى أصحاب الجراءة والسعة من المترفين وفارغى البال ، ثم تجاوزهم الى أصحاب الثروة الذين يحبون السرعة ويستطيعون الانفاق ، ثم أخذ منذ حين ينزل ويتدلى دون ان يفارق الجو ، ولكنه ينزل ويتدلى على كل حال حتى بلغ امثالك وأمثالى من أهل الطبقات الهينة اليسيرة المتواضعة التى يسمونها الطبقات الديمقراطية . وأصبح الطيران فى هذه الايام اداة من ادوات الانتقال قد يعجز العمال عن استخدامها ، ولكن أهل الطبقات الوسطى لا يعجزون عن ذلك ولا يترددون فيه ، والغريب انه بعد ان تقدم او تأخر فى اوربا وأمريكا الى هذا الحد وصل الى مصر واستقر فيها ، ان صح ان الطيران يستطيع ان يستقر . وصل الى مصر واصبح اداة للانتقال يستخدمها المصريون الذين عرفهم الزمان ببغض السرعة وحب الأناة والحرص على الثبات والاستقرار . أليس آباؤهم قد بنوا الاهرام . ومع ذلك فقد أخذ المصريون يطيرون ، ولم يقتصر الطيران على الرجال فى مصر ، بل تجاوزهم الى النساء فهن يطرن أيضا وهن يسابقن فى الطيران ، وهن يسبقن الطائرين ، وقد كان مكتوبا عليهن أن يلزمن الدور ويعكفن من وراء الخدور . ولكن ماذا نصنع وقد ارتقى العقل حتى سابق الخيال ، وارتقى الجسم حتى

استطاع أن يطير ويبلغ آمادا وبيئات لم يكن يبلغها من قبل الا الخيال والوهم . وأغرب من هذا وذاك ان الطيران قد هان ولان وسهل أمره وابتذلت قيمته حتى أصبح مباحا لقوم ما كان ينبغي أن يباح لهم لولا أن الفساد قد دب الى كل شيء وتسلط على كل شيء وأصبح الناس ينظرون فلا يعرفون أين يعيشون ، ولا كيف يعيشون

وهؤلاء القوم الذين سخر لهم الطيران فى آخر الزمان هم الأدباء . والأدباء المصريون ، أرأيت الى أديب عربي يطير ؟ أين نحن من أيام طرفة بن العبد ، وعلقمة بن عبدة ، وزهير ، وغيرهم من الشعراء الذين كانوا اذا حزبهم الأمر وألح عليهم الهم وعبث بهم شيطان الشعر يعمدون الى نوقهم فيركبونها ثم يخرجون بها فى الصحراء ليسلوا عن أنفسهم همها ، وليتلقوا عن شياطينهم ما يريدون أن يوحوا اليهم من جد الكلام وهزله . ثم يعودون وقد فتنوا بهذه النوق وقالوا فى وصفها مالا نزال نتكلف فى فهمه وتفسيره ضروب المشقة وألوان العناء .

كذلك كان يفعل اسلافنا من شعراء الجاهلية والاسلام ، أما الآن فصديقنا الأستاذ عبد العزيز البشرى يطير لا بالخيال ولا بالعقل ولا على جناح الفلسفة ، وانما يطير حقا ، يطير من هليوبوليس الى الأسكندرية ، ثم يتحدث عن طيارته كما كان يتحدث طرفة عن ناقته ، أو كما كان يتحدث صاحب العرداة عن عرادته ، أو كما يتحدث أبو نواس عن ناقته فى تلك الأبيات التى يحسن الأستاذ عبد العزيز البشرى خاصة انشادها وتوقيعها ، يتحدث عن هذه الطيارة حديثا اى حديث ، حديثا ساحرا حقا ، باهرا حقا ، نشرته الاهرام فى الصيف فأعجبت به حتى لم أنسه الى الآن على كثرة ما قرأت منذ الصيف ، حديثا لا تكاد تمضى فيه حتى تحس كأن الأستاذ يعرف طيارته كما كان طرفة يعرف ناقته ، ومع ذلك فما أظن ان للاستاذ علما مفصلا بهذه الشياطين التى تطير بالناس فى الجو منذ طغى القلم الحديث . ولكن للبيان سحرا ينطق صاحبه بالأعاجيب ، وما دام الأدباء وقد أخذوا يطيرون ، وما دام الطيران قد أصبح أداة من أدوات الانتقال فلا بد من أن تتغير لغة الناس بعض الشيء ، ولا بد من أن يلتمس المبالغون لأنفسهم ألفاظا أخرى يعبرون بها عن السرعة حين يريدون أن يصفوا السرعة ، فقد كانوا يطيرون شوقا حين كان الطيران أمرا مستحيلا ، أما الآن فيجب أن يجدوا للشوق أداة ينتقل بها غير الطيارة ، وبيئة يتنقل فيها غير الجو .

وقد أخذ الأدباء الاوروبيون يسلكون الطريق الطبيعية الى هذه الغاية ، وأول ما كان ينبغي أن يفعلوه من ذلك انما هو تسخير الطيارة للادب بعد ان سخرت للعقل والجسم ، ولعقول الادباء وأجسامهم بنوع خاص ، أخذوا يفهمونها ثم يصفونها ويعبرون عنها تعبيراً أدبيا بعد ان كان وصفها والتعبير عنها مقصورين على العلماء الذين يخترعون ، والعمال الذين ينفذون ، والصناع الذين يعالجون أجزاء الطيارة فى كل ساعة من ساعات النهار . ثم لم يكتف الادباء بالفهم والوصف والتصوير فيما يكتبون من المقالات ، وما ينظمون من القصائد وما يذيعون من الاحاديث ، ولكنهم تجاوزوا ذلك فاستغلوا الطيارة فى فنون الأدب كلها . فما الذى يمنع ان تكون الطيارة موضوعا يلهم أصحاب القصص ، ويلهم أصحاب التمثيل ، واذا كان من الحق أن الناس يأتلفون ويختلفون وتثور بينهم عواطف الحب والبغض فتؤثر فى حياتهم أبلغ الاثر وأعمقه ، وتلهم القصاص أن يصوروا من ذلك ما يريدون ، فاذا بعضهم يصور من ذلك ما يقع فى قطار ، وبعضهم يصور من ذلك ما يقع فى سيارة ، وبعضهم يصور من ذلك ما يقع فى عربة تجرها الخيل ، أقول اذا كان من الحق أن كرسى البريد وعربة الخيل والسيارة والقطار والزورق والسفينة الشراعية والسفينة البخارية ، كل ذلك قد ألهم الأدباء فى الشعر والنثر والقصص والتمثيل ، فما الذى يمنع الطيارة أن تلهم الأدباء فى هذه الفنون جميعا ، ومن الذى يستطيع أن يزعم أن الطيارة أقل قدرة على الالهام ، وأقل حظا من الفصاحة وسحر البيان من هذه الأدوات التى ذكرناها آنفا . ومن الذى يستطيع أن يزعم أن الأدباء الذين سخروا للأدب كل هذه الادوات يعجزون عن أن يسخروا للأدب هذه الاداة الجديدة التى تطير بأجسام الناس بعد أن طارت صورتها بما كان لهم من عقل أو خيال

الطيارة قادرة على الالهام ، والأدباء قادرون على أن ينطقوها رغم أنفها سواء أكان لها أنف أم لم يكن . وتستطيع أن تنظر فى الآداب الأوربية الحديثة فسترى أن الأدباء قد أغنوا فنون الأدب وأضافوا الى ثروته الضخمة ثروة أخرى قيمة حين اتخذوا الطيارة أداة من أدوات القصص . وانا زعيم بأنك إن بدأت القصة التى أنشأها الكاتب الفرنسى كيسل منذ أعوام وسماها اكياج

(... ة على صفحة ٤٣٩)